Alwerakah and Alwarrakoon, and their intellectual and educational impact from the beginning of islam until the sixth century AH in Iraq and the Islamic Levant

Hamed Bin Mohamdy

Graduate student - master / History and Islamic Civilization / College of Arts, Humanities, and Social Sciences\ University of Sharjah

U18103532@sharjah.ac.ae

Saleh Muhammad Zeki Mahmood Al-Leheabi, (PHD)

Assistant Professor Department of History and Islamic Civilization College of Arts, Humanities, and Social Sciences\ University of Sharjah

smahmood@sharjah.ac.ae

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i142.3670

Abstract:

Alwarrakoon and the art, profession or craft of alwerakah are important and exciting elements for every researcher to delve into research and follow up on its scientific and intellectual impact; This is because it is closely related to writing, reading, blogging and research, which are the basis of the work of any researcher or student, and from here came this study or research, which consists of two sections, each of which has three demands, through which the researcher followed the impact of That profession, then he went on to discuss the factors of the emergence of Alwerakah as an independent profession and the contribution of some of its pioneers and the use of Alwerakah in important matters in the history of Islamic civilization, such as writing the Qur'an and transcribing hadiths, and then the beginning of the blogging movement in Arab Islamic history, and its development in the Rashidun, Umayyad and then Abbasid eras, which witnessed a major support for Alwerakah , which is the establishment of the city of Baghdad and then the House of Wisdom, to begin what the researcher calls the golden age of Alwerakah scientifically, intellectually and professionally. The intellectual that was raised by Alwerakah at that time, is the main reason of what we have today as a sources, books and encyclopedias which taught us in a various sciences and knowledge. In general, this research follows Alwerakah and the results that affected it, from its beginning until golden age of the Abbasid era.

Keywords: authorship, Baghdad, libraries, translation, werakah.

الوراقة والوراقون وأثرهم الفكري والتعليمي في بغداد وبلاد المشرق من صدر الإسلام وحتى القرن السادس الهجري

الباحث: حامد بن محمدي
طالب دراسات عليا- ماجستير/تخصص التاريخ والحضارة الإسلامية/كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية/جامعة الشارقة

أ.م.د.صالح محمد زكي محمود اللهيبي
أستاذ مساعد / قسم التاريخ والحضارة الإسلامية / كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية / جامعة الشارقة

(مُلَخَّصُ البَحث)

الوراقون وحرفة الوراقة هي عناصر مهمة ومثيرة لكل باحث أن يخوض غمار البحث فيها و متابعة أثرها العلمي والفكري؛ وذلك لارتباطها الوثيق بالكتابة والقراءة والتدوين والبحث وهو أساس عمل أي باحث أو دارس، و من هنا جاءت هذه الدراسة أو البحث الذي يتكون من مبحثين في كل منهما ثلاثة مطالب تتبع الباحث من خلالها عوامل ظهور الوراقة كمهنة مستقلة ونبوغ بعض روادها واستخدام الوراقة في أمور مهمة في تاريخ الحضارة الإسلامية ككتابة القرآن و تدوين الحديث ومن ثم بداية حركة التدوين في التاريخ العربي الإسلامي ، وتطور ذلك في العصر الراشدي والأموي ثم العباسي الذي شهد خطوة كبرى في دعم الوراقة وهي إنشاء مدينة بغداد ومن ثم بيت الحكمة ، ليبدأ العصر الذهبي للوراقة علمياً وفكرياً ومهنياً، وتظهر المكتبات العامة والخاصة وتبرز طبقات الوراقين وتعلو مكانتهم في الدولة، كل ذلك بحثته هذه الدراسة التي استكملت البحث في الدور المهني والحراك الفكري الذي أثارته الوراقة آنذاك، ونتاجها هو ما بين أيدينا اليوم من مصادر وكتب وموسوعات ننهل منها في شتى العلوم والمعارف، فهذا البحث في مجمله يتابع الوراقة والوراقين وشؤونهما كلها من العوامل التي أثّرت في الوراقة والنتائج التي كانت أثراً لها، منذ البداية وحتى الوصول إلى ما يصفه الباحث بالعصر الذهبي للوراقة وهو العصر العباسي.

الكلمات المفتاحية: بغداد، تأليف، ترجمة، مكتبات، وراقة.

مشكلة البحث

يعمل البحث على الإجابة عن تساؤلات مهمة يبحث من خلالها عن مكامن المعلومات الواردة في المصادر و المراجع عن الوراقة ماهيّتها و العاملين فيها وأثرها على العلم والمعرفة والتدوين والمكتبات فضلاً عن أثرها من جانبه الاجتماعي والفكري والتعليمي، وما قدمته للحضارة العربية الإسلامية كونها أبرز المهن التي حفظت التراث وذلك من خلال التساؤلات الآتية :

تساؤلات الدراسة:

١- ما التطورات التي مرّت بها مهنة الوراقة ؟ .

٢- أين ازدهرت الوراقة وما عوامل ازدهارها ؟ .

٣- ما هو تأثير الدعم الذي أولته الخلافة العباسية للوراقة ؟ .

٤- ما هو تأثير الوراقين في الحياة الفكرية والتعليمية خلال العصر العباسي ؟ .

٥- لماذا احتل الوراقون مكانة بارزة في الحضارة العربية الإسلامية وماهي مساهماتهم ؟

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث من خلال الآتي :

١. مهنة الوراقة و مواكبتها للتطور الفكري والمعرفي في الحضارة الإسلامية ولاسيّما في العصر العباسي وما يليه .

٢. تسليط الضوء على مهنة الوراقة وتأثيرها على العلم والمعرفة .

٣. دور الوراقين وجهودهم لتطوير هذه المهنة والاهتمام بها .

٤. الأهمية المكانية والثقافية لأماكن ازدهار الوراقة و أثر الوراقين .

أهداف البحث:

١. بيان أهمية مهنة الوراقة و العاملين بها من الوراقين .

٢. رصد التطورات التي مرت بها هذه المهنة .

٣. تتبع الدور الفكري والمعرفي للوراقين، جنباً إلى جنب مع دورهم التجاري كأصحاب مهنة.

منهج البحث:

تعتمد الدراسة على منهج الاسترداد التاريخي القائم على جمع المعلومات وفحصها، وإخضاعها للنقد والتحليل.

حدود البحث:

الحدود المكانية للبحث هي بلاد المشرق وبغداد بوجه أخص، والحدود الزمانية هي من صدر الإسلام وحتى القرن السادس الهجري .

محاور البحث:

قسمت الدراسة إلى مبحثين وثلاثة مطالب لكل منهما وهي كالآتي :

المبحث الأول : ازدهار مهنة الوراقة في بغداد و بلاد المشرق خلال العصر العباسي :

المطلب الأول : إنشاء مدينة بغداد و ظهورها كعاصمة للوراقة .

المطلب الثاني : الكتب و المكتبات في عصر الوراقة الذهبي .

المطلب الثالث : الوراقة كحرفة مهمة والوراق كموهبة نادرة .

المبحث الثاني : الوراقة بين المهنة و الحراك الفكري التعليمي .

المطلب الأول : الوراقة وأثرها في طفرة الازدهار المعرفي .

المطلب الثاني : تنوع أثر الوراقين ومكتباتهم فكريا وتعليميا ومهنيا .

المطلب الثالث : دور الترجمة ودعم بيت الحكمة لمكانة الوراقة والوراقين .

المقدمة

شكلت مهنة الوراقة عاملاً بارزاً و عنصراً مهما من العناصر التي لا يستغني عنها أي علم، كون العلوم لا تحفظ وتدرس وتنتقل وتقرأ إلا بجهود الوراقين ونتيجة لما تقدمه مهنة الوراقة، إذ لا يمكن بحال من الأحوال استغناء الدارسين والباحثين والمؤلفين عن الكتب والمطويات والأوراق وغيرها من وسائل التدوين والحفظ التي شرف الوراقون بحمل لوائها وإنتاجها وتطويرها وإتاحتها لأهل العلم والمعرفة، وإذ كانت الوراقة عنصراً لا يفترق بحال من الأحوال عن العلم والمعرفة كان أثرها ذا شأن كبير في تطور العلوم وازدهارها وبالتالي ازدهار وتطور الأمم والحضارات التي حملت تلك الأوراق وكتب هؤلاء الوراقون تاريخهم وعلومهم وثقافتهم وحفظوها للأجيال المتعاقبة، فكان حرياً بكل باحث بغض النظر عن مستواه العلمي والمعرفي أن يولي جزءاً غير يسير من الفضل والشكر والثناء والعرفان لمادة الورق التي أخذ منها العلم ودون عليها ما تعلم ولمهنة الوراقة التي أتاحت له الحصول على ما يريد من علم ولشخص الوراق والوراقين الذين لم يكن لينال ما نال دونهم ودون جهودهم، فلذلك جاءت هذه الدراسة لتبحث دور الوراقة ونشأتها وتطورها وأنواعها والوراقين وأثرهم الفكري والمعرفي والمهني إلى غير ذلك من العوامل التي ساهمت في الوراقة تأثراً أو تأثيراً، كبدايات التدوين وحركة الترجمة إلى ما تلا ذلك من نهضة غير مسبوقة ولعلها غير ملحوقة في العصر العباسي وما شهده من دور لبيت الحكمة وحركة الترجمة والتأليف الكبيرة ، كما تتبعت الدراسة المستوى الرفيع الذي ناله بعض الوراقين نتيجة لدورهم وموهبتهم في هذه الحرفة التي عادت عليهم بالخير الوفير معنوياً وماديا ومجتمعياً.

المبحث الأول : ازدهار مهنة الوراقة في بغداد و بلاد المشرق خلال العصر العباسي.

لم يكن للوراقة أن تزدهر وتتطور لولا تواجد مكان حاضن لهذه المهنة و المحترفين بها، ولم تكن لتتطور لوحدها لولا دعم أولي الأمر ممن كان لهم اهتمام آنذاك بالوراقة والوراقين، وقد التقت الكثير من الأسباب التي أثرت في تطور الوراقة وكانت سببا في ازدهارها؛ ويسبر الباحث أغوارها في هذا المبحث ذي المطالب الثلاثة .

المطلب الأول: إنشاء مدينة بغداد و ظهورها كعاصمة للوراقة.

يرصد الباحث في هذه الأسطر ازدهار مهنة الوراقة في بغداد و بلاد المشرق خلال العصر العباسي؛ فبغداد حاضرة العالم الإسلامي ورمز المعرفة والعاصمة المشيدة لخلافة بني العباس، كان تشييدها نتاجاً للحاجة الماسة لدى العباسيين لإنشاء مركز سياسي قوي

لدولتهم، لاسيّما بعد استتباب الأمر لهم ورغبتهم في الحفاظ على مكتسبات دعوتهم ومواجهة الأخطار المحدقة بهم من كل جانب.

يذكر خير الله سعيد في هديته القيّمة للباحثين وهي كتابه: "موسوعة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية": أن فكرة إقامة وإيجاد مركز للخلافة العباسية كانت قائمة في أذهان الخلفاء العباسيين منذ قيام الدعوة، إذ إن قيام المركز في الأنبار والكوفة لم يُرضِ أبا العباس السفاح، الذي أشاد بخراسان وولائها لهم، ووصف البصرة بأنها عثمانية نسبة إلى عثمان بن عفان وأنها مسالمه تدعو إلى الكف عن القتال، و رأى أن الجزيرة الفراتية مارقة، ورأى مكة والمدينة متمسكتان بذكرى وأثر الخلافة الراشدة، والكوفة تدين بالولاء والمحبة لعلي وآله؛ ولهذه الأسباب وغيرها كان لزاماً إيجاد بديل لكل تلك المراكز السياسية منذ بدايات الخلافة العباسية، واستمرت تلك النظرة والرؤية مع تولي أبي جعفر المنصور للخلافة بعد السفاح، إذ وضع المنصور نصب عينيه إيجاد عاصمة بعيدة عن العصبيات المناوئة لهم، وتكون فيها السيطرة التامة على كل الأقاليم الخاضعة لبني العباس، فاختار المنصور بغداد بعد بحث وتحر ومشاورة وأخذ رأي، ووضع معايير سياسية وطبيعية واجتماعية بل وحتى مناخية، فأمر بالبدء ببنائها سنة ١٤٥ للهجرة وتم البناء سنة ١٤٦ واستكمل بناء السور والخندق وإحكام جميع أمر المدينة عام ١٤٩ للهجرة وأسماها مدينة السلام (سعيد، ٢٠١١، ص٥٧-٥٩).

ويمضي سعيد في رصده لازدهار بغداد بكل العلوم و المعارف ومظاهر التطور ليصل إلى الوراقة متمثلة عنده في التأليف ليذكر أن صناعة الورق في بغداد ألقت بظلالها على تطور التأليف حتى شهدت نهاية القرن الرابع الهجري ظهور النديم واصفاً إياه بالوراق الحاذق المؤسس لمنهج مؤدٍ إلى فهارس أخرى نحت منحى كتابه العظيم "الفهرست"، ومن مظاهر تطور التأليف بحسب سعيد في ذات السياق ظهور المسعودي الذي اختط منهجاً وصفياً في الجغرافيا ممازجاً بين الأدب والتاريخ بصيغ جميلة، وظهور الطبري والبلاذري اللذين تربّعا على عرش تصنيفات المؤرخين، وظهر أبو الفرج الأصفهاني بمسار جمع فيه أخبار الشعراء والموسيقيين وشخصيات المجتمع المهمة ، وظهر نقد ابن قدامة للشعر، وقدم ابن المعتز طبقات الشعراء ليصف فيه الصور البلاغية لهم، وقدم الباقلاني الدليل على إعجاز القرآن، وجمع أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين الكتابة والشعر مقتفياً أسلوب الجاحظ، وأظهرت كتابات أبي حيان التوحيدي متانة الأسلوب المتفرد والعبارة الفخمة ذات الطابع الفلسفي، مضيفاً إلى ذلك ظهور الفلسفة التي أثبتت تطورها في القرنين الثالث والرابع الهجريين على يد الكندي و الفارابي و الرازي وابن سينا وغيرهم (سعيد، ٢٠١١، ص٨٦-٨٧).

ولعل خير من يُستشهَد بكلامه في مكانة بغداد ويؤخذ عنه في البلدان وأخبارها ياقوت الحموي الذي نقل عن بعض الفضلاء في بغداد قوله: " بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرّة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فنّ، وآحاد الدهر في كل نوع، وكان ابن العميد إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلوم والآداب وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد، فإن فطن بخواصّها وتنبّه على محاسنها وأثنى عليها جعل ذلك مقدّمة فضله وعنوان عقله، ثم سأله عن الجاحظ، فإن وجد أثرا لمطالعة كتبه والاقتباس من نوره والاغتراف من بحره وبعض القيام بمسائله قضى له بأنه غرّة شادخة في أهل العلم والآداب، وإن وجده ذاما لبغداد غافلا عما يحب أن يكون موسوما به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن، ولما رجع الصاحب عن بغداد سأله ابن العميد عنها، فقال: بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد، فجعلها مثلا في الغاية في الفضل" (الحموي، ٩٥، ص٤٦١).

والمتابع لتطور وازدهار المهن والعلوم والمعارف المتدفقة في العصر العباسي لاسيّما ابان عصره الذهبي، يرى أنه كان لا بد لها من دافع مهم و تنظيم و تسيير لعملية الكتابة و التدوين، و يرى الباحث أن إحدى أهم تلك العوامل التي ساهمت في تنظيم عملية الكتابة أو الوراقة التي حوفظ بها على تلك العلوم والمؤلفات والكتب هو ما قام به هارون الرشيد من تنظيم أجبر فيه الوراقين وغيرهم في الدولة العباسية على استخدام الكاغد وهو الورق في كل مكاتباتهم ومؤلفاتهم وغيرها، وذلك لأن الكاغد أصلح للكتابة واللف، إذ كان الناس يكتبون في الرق منذ عهد الراشدين وتدوين القرآن حتى صدور هذا الأمر من الرشيد فعمّم استخدام الكاغد وهو الورق في كل أنحاء الدولة العباسية، وهو ما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى قائلاً: "وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس أمر ألّا يكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد، وإن كشط ظهر كشطه. وانتشرت الكتابة على الورق في سائر الأقطار، واستمرّ الناس على ذلك إلى الآن" (القلقشندي، ٢٠٢١، ص٥١٥و٥١٦).

وهذه الخطوة المهمة بحسب رأي الباحث هي التي رسمت خطاً واضحاً للمؤلفين والكتاب والوراقين سواءً في العمل الفردي أو المؤسسات مثل الدواوين وغيرها، إذ حدد نوعاً واحداً من المواد المستخدمة للكتابة عليها وهي الكاغد، وذلك لما له من أثر في الحفاظ على جودة الكتب وتقليل إمكانية تلفها وتسهيل تداولها ونقلها ونسخها وقراءتها، عطفاً على لفّها وتخزينها وطيّها مع غيرها من الصفحات والكتب، فضلاً عن أن أهم النقاط التي ذكرها أحمد

بن علي القلقشندي وهي الرقابة على التزوير والتعديل على المكتوب، وهو ما كان ممكناً بسهولة مع استخدام الجلود و غيرها في الكتابة، فيسهل المسح والتعديل والتزوير من ذوي النفوس الضعيفة والمآرب المشبوهة والغايات الفاسدة، أما الورق بعد تعميم استخدامه فحصل أن صعب ذلك على المزور، إذ يبدو واضحاً للقاريء والناظر في المكتوب أي كشط أو تغيير أو تزوير، وهو ما يثير الشكوك والتساؤلات فيحتاج بذلك من قام بالتعديل أو التزوير أن يبدي مبرراته لذلك ويضعه ذلك تحت مجهر الرقابة وذلك دون شك أثر إيجابي يدعم الأمانة العلمية والحقوق الفكرية لما هو مكتوب.هذا كله من التنظيم أدى بالتأكيد إلى ازدهار مهنة الوراقة وعمل الوراقين في العصر العباسي، وهو الازدهار الذي يمكن القول بأنه استمر ولا يزال في استمرار إلى يومنا هذا على الرغم من اختلاف الوسائل وتطور السبل وتنوع الإنتاج .

ومن جانب آخر يذكر سعيد أن للجدل وانتشاره أثر في ازدهار الوراقة التي سارعت في التطور والنمو فأشيعت الثقافة وانتشرت العلوم، وتحولت المظاهر الثقافية إلى صفة شعبية، متخطية حاجز قصر الخلافة أو بيوت الأمراء، وصارت مطارحات الأدباء ومناظرات العلماء في بيوتات العامة والخاصة وشهد سوق الوراقين هذه الظاهرة بشكل يوميّ (سعيد، ٢٠١١، ص٨٤و٨٥).

المطلب الثاني: الكتب والمكتبات في عصر الوراقة الذهبي:

تذكر المستشرقة الألمانية زيجرد هونكه وهي من أشهر المدافعات عن الإسلام والعرب في بلاد الغرب، أن تجارة الكتب في المشرق وعند العرب كانت تبلغ تكلفتها مئات الملايين سنوياً، ضاربة مثالا بالمكتبة النظامية لجامعة بغداد إذ كانت ميزانيتها السنوية مليونين ونصف مليون فرنك ذهبي لشراء الكتب والمخطوطات، وهو ما يؤكد أنها كانت تتعدى المهنة البسيطة لتصل إلى مستوى يمكن منه أن توصف بأنها تجارة رائجة وصناعة قائمة بحد ذاتها، عطفاً على أثرها الفكري والعلمي والاجتماعي.

وبعيداً عن بغداد فمكتبة الفاطميين في عهد العزيز بالله وهو خامس الخلفاء الفاطميين كانت تحوي زهاء مليون وستمائة ألف مجلد في حال جيدة وجودة عالية، وستة آلاف وخمسمائة منها في الرياضيات، وثمانية عشر ألفاً في الفلسفة، ومضى خلفه من بعده و هو ابنه الحاكم بأمر الله على هذا النهج ليضيف إليها مكتبة أخرى –رغم كفاية مكتبة العزيز– كانت تشغل ثماني عشرة قاعة.

وتمضي هونكه في حديثها عن هذا الجانب لتقول : " فالنساخ والخطاطون كانوا فنانين في مهنتهم فكل مكتبة وكل تاجر كتب يوظف لديه عددًا من هؤلاء الموظفين ومعظمهم من الطلبة الذين يريدون أن يكسبوا قوتهم اليومي أو من فقراء المتعلمين، ثم نحد صناع الورق

في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس والشام وطبرية بفلسطين و «ياتيفا» الشهيرة بالقرب من بلنسية في الأندلس، ثم نجد مجلدي الكتب يطبقون الورق على الطريقة الصينية مثنى ورباع وثمان وسداس عشر في الحجم المعروف باسم المنصوري أو كما يعرف الآن باسم «فوليو» والبغدادي وهو المعروف الآن باسم «كوارت» " (هونكه، ١٤٣٢، ص٢٩٠-٣٠٣).

هذا العدد المهول للمؤلفات والكتب يمكن الاستنتاج أنه لم يكن إلا نتاجاً لازدهار مهنة الوراقة، وإلا فكيف وصلت الأعداد إلى هذه الأرقام الكبيرة، وكل منها يحتاج إلى ورق يكتب عليه، و وراق أو كاتب يكتب ومدقق يراقبه وناسخ ينسخ منه طبعات أخرى، وحبر يكتب به وأقلام يخط بها، بل ومكان يؤويهم ويمارسون فيه عملهم، ورواتب وأجور أو مكافآت نظير عملهم، إلى غير ذلك من الأمور الأخرى التي لا تكتمل أعمال الوراقة إلا بها، فكل ذلك يؤكد للباحث أن الوراقة كانت تشهد نهضة كبرى و تستفيد من دعم قوي وتتطور بتسارع .

هذا بالنسبة للعمل الوراقي كالنسخ والنقل وغيره ، ولكن من جانب آخر لا بد أن ننوه كذلك إلى التأليف، وهو ما يغذي ويزود تلك المكتبات، وقد ذكرنا سابقاً كيف ازدهر التأليف وظهر جهابذة الأدب والفلسفة والطب وغيره، فمضت جهودهم جنباً إلى جنب مع الوراقين لتحقيق نهضة علمية وفكرية استفادت منها هذه المهنة وتلك العلوم، فضلاً عن المكتبات وانتشارها والاهتمام المتزايد بها وبتشييدها ورفدها بأمهات الكتب الثمينة.

ومن عظيم المكتبات المذكورة والموصوفة بالكمال والجمال وإتقان التصميم وحسن العمارة ما ذكره المقدسي عن مكتبة عضد الدولة البويهي بأنها: "عليها خازن ومشرف ومفتاح وناظر من عدول البلد لم يبق كتاب صنّف في نوع من العلوم الّا جمعه فيها وهي أزج طويل فيه خزائن من كلّ وجه وقد الصق الى حيطان تلك الخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع مبيّتة عليها أبواب تنحدر عليها والدفاتر منضّدة على الرفوف و لكلّ نوع بيوت و فهرسات ، فيها أسامي الكتب ، ولا يدخلها إلا وجيه" (المقدسي، ١٩٩١، ص٤٥٠). وهذا دليل آخر على حسن الاهتمام بالمكتبات حتى رغم الاضطراب السياسي وتراجع الدولة، إذ يظهر الاهتمام بالتصميم والعمارة والغرف والممرات وأنواع الرفوف وإتقان القياسات.

كما أن الطاقم المكلف بالعمل في هذه المكتبة شامل لكل ما تحتاجه، فلها خازن يحفظها ومشرف يراقبها ومفتاح وناظر يعملان على تسييرها، بل أنهم ليسوا مجرد موظفين عاديين، بل هم من عدول البلد وأهل الثقة تم اختيارهم بعناية فائقة للقيام بهذه المهمة. ومن جانب آخر نلحظ الحرص على جمع كل التخصصات والعلوم وتنويعها في هذه المكتبة، التي لم يبقَ علم إلا جمعته وضمته بين رفوفها ، فضلاً عن تصنيفها وفهرستها وتسجيل أسمائها وأنواعها وغير ذلك من معلومات، إذ إن شمولية المكتبات وتنوع العلوم فيها وعدم

اقتصارها على نوع واحد من التخصصات والعلوم يؤكد على الاهتمام الواسع آنذاك بالعلم والمعرفة التي ساهمت الوراقة في إنتاجهما، فلم تقتصر على الفقه أو الحديث أو الفلسفة أو التاريخ أو الطب أو الأعلام أو غيرها من المواضيع التي قد نجد بعض المكتبات أو الوراقين مختصين في جانب واحد منها فقط .

إلا أن أكثر ما شد الباحث في هذا النص لدى المقدسي أنه لا يدخل تلك المكتبة الفخمة المشيدة إلا وجيهٌ، وهو مظهر من مظاهر النخبوية والتمييز لذوي العلم والمعرفة وأهل الدراية والخبرة والفكر، ولعل بالإمكان قياس ذلك في زمننا هذا على المجالس النخبوية والأندية الحصرية التي لا يدخلها إلا نخبة مختارة وصفوة منتقاة ممن تميزوا واستحقوا اختيارهم لهذه الميزة التي لا تتاح إلا لفئة قليلة، وهذا من مفاخر العلم والمعرفة آنذاك ومن مظاهر تطور وازدهار الحركة الفكرية والثقافية التي لم تكن لتحصل وتزدهر وتكتمل لولا دور الوراقة والوراقين ، الذين أنتجوا هذه الكتب وما تحويه من درر كامنة وعلوم متنوعة ومعرفة وثقافة قدموها للباحثين عن العلم والتعلم .

المطلب الثالث: الوراقة كحرفة مهمة والورّاق كموهبة نادرة:

عند النظر إلى حرفة أو صنعة ما وقياس مدى تطورها، لا بد من النظر بعين الاعتبار إلى أثرها الاقتصادي إن صح التعبير، أو بالأحرى أثرها المادي الذي أنتجته، ومهنة الوراقة ليست بمعزل عن تلك المهن، فقد ظهر لها أثر مادي على الوراقين نتيجة إنتاجهم ونسخهم للكتب بأجر، إذ إن العصر العباسي ولاسيّما النصف الأول منه كان قد شهد الانتهاء من نسخ المصاحف و حفظها ونشرها، وكانت تلك المدة بين عصر جمع القرآن وازدهار وتطور الوراقة مدة كافية للتفريق بشكل واضح وجلي بين الورّاق والمصحفي، فبذلك لم يعد من حرج على الوراق الذي كان يتحرج من أخذ أجر نظير نسخه للقرآن، إذ أصبح الشائع نسخ الكتب والمؤلفات و ليس القرآن – رغم استمرار ما لنسخ القرآن من أهمية – وبذلك ازدهرت مهنة الوراقة وأصبح الوراق مطلوباً لنسخ الكتب ومقابلتها وتنقيحها وكتابة الجديد منها، وذلك بالتأكيد يحتاج إلى أجر ماليّ كحال المهن والحرف كافة، كالطبيب والحجّام والخياط والبستاني وغيرها من المهن دون مفاضلة بينها .

وعلى افتراض المفاضلة بين كل ذي صنعة وحرفة ونظيره في ذات الحرفة فيمكن القول إن المفاضلة في حسن الخط و جودة الكتابة والفهم السريع والأمانة وحسن التنفيذ كانت ترفع من أجر الوراق وتزيد من حسن سمعته لدى الزبائن والراغبين في خدمة الوراقين. ويذكر ياقوت الحموي في معجمه للأدباء – نقلا عن الخطيب البغدادي– بأن الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي و هو قاض نحوي ولغوي، كان يوفر مصروفه اليومي الذي يأكل منه ويحصل به على قوته، من الوراقة والكتابة، إذ كان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى

مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم تكون بقدر مؤونته ثم يخرج إلى مجلسه (الحموي، ١٩٩٣، ص٨٧٧).

ويجد الباحث في هذا الاستشهاد أن السيرافي ليس وراقاً عادياً بسيطاً يعمل في حانوت أو دكان للوراقة ويتكسب من الوراقة وليس له غيرها، بل هو قاض ذو شأن في العلم واللغة وهو مؤلف كتاب شرح سيبويه وغيره؛ وعلى الرغم من ذلك عمل في الوراقة وتكسّب منها وكان قوت يومه منها، وذلك دليل على شيوع ذلك آنذاك، وكثرة الطلب على الوراقين؛ وذلك يستشفّ منه ديمومة الأمر واستمراره للمدى الذي جعل السيرافي يعتمد عليه في قوت يومه، ولو لم تكن طفرة وازدهاراً مستمرا لما استمر عليه واعتمده ليستفيد منه ويوفر معيشته منه.

ومن ذلك ما وقفت عليه عند الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن الورّاق الحسن بن شهاب العكبري قال: "كسبت فِي الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية، قَالَ: وكنت أشتري كاغدا بخمسة دراهم فأكتب فيه ديوان المتنبي فِي ثلاث ليال، وأبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهما، وكذلك كتب الأدب المطلوبة". ويمضي البغدادي فيقول عن ثراء العكبري: "سمعت الأزهري، يَقُولُ: أخذ السلطان من تركة ابن شهاب ما قدره ألف دينار، سوى ما خلفه من الكروم والعقار، وكان أوصى بثلث ماله لمتفقهة الحنابلة فلم يعطوا شيئا" (البغدادي، ٢٠٠٢، ص٢٩٨).

على أن الوراقة ليست في كل أحوالها مصدر ثراء ولا وسيلة سريعة له، فقد يموت الوراق جوعاً وقد يضطر غير الوراق إلى العمل في الوراقة لقلة ذات يده ولحاجته الماسة لما يسد به رمقه من قوت يومه ومن ذلك ما ذكره البغدادي كذلك عن السري بن أحمد الرفاء الموصلي، وهو شاعر اتصل بسيف الدولة وبعض أمراء بني حمدان، أنه في آخر عمره: "عَدِم القوت فضلا عن غيره، ودُفع إلى الوراقة، فجلس يورق شعره ويبيعه، ثم نسخ لغيره بالأجرة، وركبه الدين، ومات ببغداد على تلك الحال بعيد سنة ستين وثلاث مائة" (البغدادي، ٢٠٠٢، ص٢٩٨).

ومن طريف ما وقعت عليه في الالتفات للوراقة ومعرفة ما وصلت إليه من ازدهار وتطور ما أوصلها أن تصير مهنة مرموقة دخلها مجزٍ ومردودها كبير ما ذكره محمد بن أحمد الذهبي في سير أعلام النبلاء أن القاضي علي بن الحسين بن حرب البغدادي وهو من ولي قضاء مصر كان يقول: مالي للقضاء، لو اقتصرت على الوراقة ما كان خطي بالرديء، ثم يذكر الذهبي أن القاضي كان دخله من مهنة القضاء مائة و عشرين ديناراً (الذهبي، ١٩٨٥، ص٥٣٧). وعلى الرغم من أن الباحث يعتقد أن القاضي ما قال ذلك إلا تندرا أو على سبيل الدعابة، إلا أن ذلك يظهر المنافسة الكبيرة التي مارستها مهنة وحرفة الوراقة على المهن والحرف الأخرى، ومنها القضاء، وكيف أن القضاة صاروا يلحظون ما يتقاضاه

الوراقون من أموال طائلة و دخل كبير، ولعلي أعود وأكرر أنه كذلك دخل مستمر و دائم و متجدد، إذ إن التأليف آنذاك بلغ أوجه و الترجمة مزدهرة و العلوم منتشرة والتأليف في عصره الذهبي، فبذلك يمكن أن نسقط المصطلح الحالي "الأمان الوظيفي" – الذي نستخدمه هذه الأيام – على مهنة وحرفة الوراقة، نظراً للتجديد الدائم والوفرة الكبيرة في دكاكين الوراقة والمكتبات العامة والخاصة وهي تحتاج دوماً إلى وراقين يقومون عليها و يشتغلون فيها و ينتجون لها الكتب وينسخون فيها المؤلفات.

ويظهر أن الوراقة آنذاك صارت إلى أن استخدمت كتجارة رائجة وسلعة يبالغ بعض أصحابها في ثمنها، طمعاً منهم وجشعاً في بعض الأحيان، واستغلالا لحاجة الناس ولهفتهم على العلم واكتساب المعرفة، وتسلقاً على ازدهار التأليف والترجمة وغيرها مما تعتمد عليه الوراقة، ومن ذلك ما ذكره أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي في كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم عن قصة يحيى بن زياد الفرّاء، صاحب كتاب معاني القرآن، وذلك أنه كان يمليه على ورّاقيه – بطريقة الأمالي – فكتبه الوراقون ونسخوه، إلا أنهم طمعاً منهم حبسوه وخزنوه عندهم ومنعوا الناس من الوصول إليه ونسخه والاستفادة منه إلا بفرض رسم يبلغ درهماً لكل خمس أوراق – وهو كتاب كبير وأوراقه بالغة الكثرة– وكان إذ اشتكى الناس عنده هذا الاستغلال راجع الوراقين وعاتبهم، فأبوا وذكروا أنهم ما صحبوه وجلسوا إليه إلا ابتغاء هذا الانتفاع والفائدة، فدعاهم إلى المقاربة والإنصاف على الأقل، فأبوا كذلك، فعمد إلى أن نادى بين الناس أنه سيملي كتاب معانٍ أتم شرحا وأبسط قولا من الذي مع الوراقين، وجلس لذلك وبلغ من إملائه في معاني الفاتحة زهاء مائة ورقة، فراجعه الوراقون نادمين ونزلوا عند نسخ كل عشرة أوراق بدرهم واحد، فرضي منهم بذلك (الجوزي، ١٩٩٢، ص١٧٨و ١٧٩)

ولكن الثراء والغنى من مهنة الوراقة بكل تأكيد ليس بالضرورة دائماً ولا مرتبطاً بها، ولا الجشع والطمع والاتجار بفوائد الوراقة لازماً للوراقين، فهناك من الوراقين فقراء معدمون وفيهم مساكين محتاجون، إلا أنهم أنفوا من المتاجرة بالوراقة وتعففوا عن تقاضي المال مقابل عملهم فيها، فهذا إبراهيم بن إسحاق الحربي يورد عنه علي بن إبراهيم النملة أنه: "يأنف أن يأخذ شيئاً من أحد و عرف عنه ذلك، رغم أنه كان معوزا و له زوجة و أطفال، ويتحدث عن حاله في ليلة من الليالي الطويلة فيقول أنه كان له بيت في دهليز داره فيه كتبه، و كان يجلس فيه للنسخ و النظر، فلما كان في تلك الليلة دق عليه طارق الباب، فقال الحربي: من هذا ؟ فأجاب الطارق أنه رجل من الجيران، فقال له ادخل، فقال الجار: حتى تطفيء السراج، فكب الحربي على السراج شيئا فانطفأ، فدخل الجار وترك إلى جانب الحربي شيئاً وانصرف، فأوقد الحربي السراج ووجد منديلا له قيمة وفيه أنواع من الطعام وكاغد فيه خمس

مئة درهم، فدعا الحربي زوجه ونبهت الصبيان فأكلوا، فلما كان من الغد قضى ديناً عليه" (النملة، ٢٠١٨، ص١٧٩و١٨٠). وعلى الرغم من أن هذه ليست أنسب حادثة نختم بها المطلب المخصص للوراقة كمهنة وعمل وحرفة، إلا أن التباين والاختلاف في المستويات المعيشية بين النظراء في المهنة الواحدة أمر شائع ومعتاد ومعروف، فلكل مهنة كبار وصغار ومحترفون وهواة وكذلك لكل مهنة أغنياء وفقراء إلى غيرها من الاختلافات والطبقات التي تنشأ .

هذا التطور في الوراقة بدا جلياً للباحث أنه أثّر على كافة جوانب العلم والمعرفة المتعلقة بصناعة و مهنة الوراقة ، بدءاً من موادها المستخدمة إلى محتوياتها من العلم و المعرفة إلى نشرها و نقلها ، إلى غير ذلك من كل ما يتعلق بالوراقة، وبهذا نختم هذا الفصل راجين أن نكون رصدنا ولو جزءاً يسيراً من تطور و ازدهار هذه المهنة الرفيعة الشريفة ذات الفضل الكبير على كل ما يتعلق بالمعرفة و العلم و الفكر .

المبحث الثاني: الوراقة بين المهنة و الحراك الفكري التعليمي

بعد تطور الوراقة وازدهارها؛ كان لا بد من أن تتبوأ مكانتها الطبيعية كمؤثّر هام و فاعل نشط في الحراك الفكري والتعليمي والثقافي؛ فهي أهم وسيلة يمكن من خلالها تطوير العلم و المعرفة و حفظ التاريخ والتراث، ويرصد الباحث ذلك التأثير في المطالب التالية .

المطلب الأول: دور الوراقة في طفرة الازدهار المعرفي:

إن أول مقياس يرصد من خلاله تطور الدول والحضارات والأمم هو المقياس الثقافي الفكري، فضلاً عن العلم وانتشار العلوم والمعارف وظهور العلماء والمفكرين، ولعل ما نناقشه في هذا العمل البحثي هو أحد أبرز تلك النماذج التي تُعد مفخرة للعرب والمسلمين في العصر العباسي وما شهده من تطور وازدهار فكري ومعرفي، ولعل النص الفريد والمعبّر الذي استهلّ به خير الله سعيد فصله الثاني من كتابه "وراقو بغداد في العصر العباسي" هو خير ما يصف تلك المرحلة وما حققته من تطور بلغ أوجه آنذاك.

عبر خيرالله سعيد عن ذلك التطور والنهضة العلمية والفكرية في الفصل الذي عنوَنه بتنامي المعرفة في بغداد قائلا : "قرَّبت الدولة رجال العلم والأدب وأغدقت عليهم الهبات والعطايا والجرايات، وعرف ذو الفضل بفضله، فرفع الأديب وأكرم العالم، وجالت صولة الأدب، واختلط العالم بالفقيه، وتناظر العلماء، واختلف الفقهاء، وتوسعت دائرة المعرفة بالتناظر، وعرفت الدولة مجالس المناظرة والمنادمة، وأكبّ كثيرون على العلم و التأليف، وقد قامت الترجمة بدور بارز في تلاقح الثقافات، فقربت البعيد فأصبح في متناول اليد، وحركت العقول، وظهرت الفلسفة – فيما بعد – متخطية علم الكلام، وظهرت آراء المذاهب والفرق،

وتطاحنت في ساحة النضال ، فتوسعت المدارك وتلاقحت العقول، وفلسف الدين وشرحت المذاهب " (سعيد، ٢٠٠٠، ص٤١).

وفي هذا النص الذي يرى الباحث أن سعيد يلخص به كيف أضحت تلك المرحلة مرحلة فخر واعتزاز اعتلت فيها الأمة منبر العلم والفكر والمعرفة ونالت أعلى الرتب في سلم الثقافة والعلوم تفوقت على نظيراتها من حضارات العالم و دوله في حقول التأليف و الترجمة والعلوم والطب والفلسفة والفلك والجغرافيا وغيرها من العلوم .

ومن نافلة القول أن هذه العلوم والمعارف لم تكن لتزدهر لولا ما أفرزته الوراقة من تطوير في العلم و الفكر و التعليم ، إذ أثرت الوراقة بجهود الوراقين وأصحاب المكتبات والمؤرخين وغيرهم في مجالات الفكر و التعليم و ساهموا في تطويرها .

ومن جانب آخر فإن الوراقة أنتجت مع ما أنتجته من صناعة و تطوير للكتابة و صناعة الورق والنشر وإنشاء حوانيت الوراقة والمكتبات ودور العلم والمعرفة، أنتجت فكراً ذا تطور وحراك وأنتجت ثقافة تتطور بالكتابة والنشر، إذ ذكرنا سابقاً كيف ظهرت الفلسفة وتطور علم الكلام مع جوانب تطور الوراقة ، فنجد كل ذلك أخذ منها وأعطاها، وأسهم فيها وأسهمت فيه.

كان سوق الوراقين الأساس والملتقى الذي تتلاقح فيه الأفكار ويتبادل الوراقون الخبرات والمعارف، ويتنافسون في الجوانب العلمية كلها، وهو ما شكل حراكاً فكرياً ثقافياً وجواً علمياً شارك فيه الوراقون، بحوانيتهم، والمهتممون بالكتب والمؤلفون الذين يرفدون تلك السوق بمؤلفاتهم وكتبهم المتنوعة التي شملت الجوانب العلمية والأدبية والفقهية والتاريخية كافة وهو ما شكل تنوعاً أثرى سوق الوراقين. يذكر خير الله سعيد أن سوق الوراقين شكلت حاضنة ثقافية وحضارية متطورة يستحق أن يتباهى به العباسيون بوصفه انجازا حضاريا.

ويقول خير الله سعيد: " كان هذا السوق إضافة إلى كونه سوقاً تجارية موئل الصفوة العلمية من أهل الأدب و الفكر والسياسة، وليس اعتباطاً أن يصفه ابن الجوزي بأنه كان مجلس العلماء والشعراء، فقد كانت الندوات الأدبية والعلمية والثقافية تعقد فيه، وفيه يتناظر العلماء، وعند دكّات الوراقين كانت المجالس العلمية تعقد، وضجيج الفلاسفة والمتكلمين يسمع في هذا الدكان أو ذاك، حتى أن صفة التمييز بين دكان وآخر كانت معروفة تبعاً للوراق، فهذا وراق عالم بعلوم الحديث، وذاك أديب يغشاه الأدباء، وثالث متكلم يحيط به المعتزلة والدهريون، ورابع يتعاطى الفلسفة، وخامس ناقد للشعر، وسادس أخباريّ، وسابع نسّابة، وثامن مترجم، وتاسع من أصحاب النوادر، وعاشر مجلّد، وآخرون في اختصاصات أخر، لذلك كان الرواد من الأدباء والعلماء يعرفون غاياتهم، وعند من يجلسون ويجتمعون،

وكل يجد ضالته عند وراق معين، وقد انتقلت هذه الظاهرة إلى الوراقين في بقية الأمصار الإسلامية كالمغرب والأندلس ومصر والشام" (سعيد، ٢٠٠٠، ص٣٨٧).

هذا النص تتجلى فيه القوة العلمية الفكرية للوراقة والوراقين والأثر العلمي الكبير الذي مثلته سوق الوراقين حتى صارت تماثل في وقتنا الحالي ناديا ثقافيا وفكريا، أو منتدى علميا، أو حتى مؤتمرا من مؤتمرات الفكر والعقل، يجتمع فيها الخبراء والعارفون بعلم معين، ويتناظرون ويتجادلون ويتبادلون الخبرات ويكتسب كل منهم علما جديدا ويسهم بما لديه كذلك في تعليم غيره ويحضره العلماء والمتعلمون وليس حكراً على أحد، فالسوق مفتوحة للجميع.

ومما شدّ الباحث في هذا النص أن التنوع في سوق الوراقين مثل جانباً مهماً يحقق غايات الجميع ويوفر مراد من يقصد السوق، حيث يقول سعيد أن الأدباء والعلماء يعرفون أهدافهم وغاياتهم وعند من يجلسون ويجتمعون، وكل يجد ضالته عند وراق معين، وهذا يؤكد أن السوق كانت رائجة وسلعتها وافرة وأثرها كبير.

ومن جانب آخر فإن المكتبات كذلك شكلت إلى جانب الأسواق العامة للوراقة مركزاً فكرياً وعلمياً آنذاك، و يمكن النظر إلى الفائدة العلمية والفكرية التي استقاها المفكرون و المؤلفون من الوراقة و الوراقين إلى استفادتهم من المكتبات ، فالمكتبات والوراقة متلازمان لا يفترقان ، كما أن أغلب من برعوا في الفكر و الأدب و الفلسفة و التأليف بشكل عام ، و ساهموا في الحراك الفكري والتعليمي هم كذلك ممن امتهنوا الوراقة كعمل لهم و حرفة أبدعوا فيها ، كما أنهم أفادوا من المكتبات و خزائن الكتب و دكاكين الوراقة ليحققوا ما حققوه من حراك فكري استفادت منه الحضارة و انتشرت به العلوم و ازداد مستوى التعليم و الفكر والمعرفة .

المطلب الثاني: تنوع أثر الوراقين والمكتبات فكريا وتعليميا ومهنيا:

يذكر محمد ماهر حمادة وهو الذي يعرّف نفسه بأنه دكتور في علم المكتبات في كتابه (المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها) دور المكتبات التعليمي والفكري قائلا: " لم تكن المكتبات في الإسلام موجودة لمجرد الزينة أو للتباهي و التفاخر أو لقطع الوقت وتزجية الفراغ أو إرضاء لهواية جمع الكتب ، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير، فقد كانت مكانا لتثقيف الشعب ككل ومكانا للبحث والدرس والتأليف و التمحيص بشكل خاص، وإن النشاط الهائل الذي أظهره علماء الإسلام وأدباؤه عائد بالدرجة الأولى إلى حسن استخدامهم المواد التي توفرت في مكتباتهم" (حمادة، ١٩٧٨، ص١٩٥).

وبما أن الباحث يرى المكتبات ليست إلا امتداداً للوراقة وعملها ونشاطها فبذلك يظهر له الدور البارز والمهم الذي عملت على إنجازه الوراقة متمثلة في المكتبات خصوصاً من ناحية الحراك الفكري التعليمي و الذي هو جزء مما نناقشه في هذا المبحث.

أما في بحثنا في الجانب الآخر من المبحث وهو الجانب المهني و تداخله مع الجانب الفكري والتعليمي فنجد أن محمد ماهر حمادة قد مضى و استطرد يذكر الكثير من الأمثلة المختارة لمؤلفين عظماء و سياسيين كبار و مفكرين عظام و فلاسفة مؤثرين بعضهم امتهن الوراقة و عمل بها و بعضهم استفاد منها و بعضهم أحبها و دعمها و سنذكر بعض تلك الأمثلة أدناه. والذي يجمع هؤلاء المذكورين جميعاً هو ما حققوه من حراك فكري وتعليمي وأنتجوه من مؤلفات أثرت المكتبة العربية الإسلامية وذلك من خلال الوراقة و مخرجاتها .

وسنذكر أدناه في السطور القادمة بعض تلك الأمثلة اتباعاً لما كتبه محمد ماهر حمادة (حمادة، ١٩٧٨، ١٩٥-١٩٧).فيبدأ حمادة بالخليفة العباسي السابع و أبرز الخلفاء تأثيراً في الوراقة – نظراً لدعمه وتطويره لبيت الحكمة- إذ يذكره واصفاً إياه بالذكي الطلعة ، ويقول أنه استفاد فائدة كبرى من مطالعاته في المكتبات والكتب ، و اشتهر بالذكاء الحاد و سعة الاطلاع و البلاغة المبينة ، وذلك كله من كثرة ما لزم الكتب وبحث فيها و نظر إليها .

والجاحظ العالم الموسوعي الذي يقول عنه أنه جمع فأوعى وألف المؤلفات العظيمة، استفاد كل الفائدة من دكاكين الوراقين ومن المكتبات ، وكانت مؤلفاته التي سارت بها الركبان و حفظها الزمان نتاجاً لمبيته الليالي الطوال في دكاكين الوراقين يطالع و يدرس و يكتب ويقرأ .

كذلك كتاب الفهرست لابن النديم لم يكن بحسب حمادة إلا ثمرة من ثمرات اشتغال مؤلفه النشيط بالوراقة و النسخ و الأمور المكتبية ، فالنديم بذلك ورّاق من أبرز الوراقين المؤثرين في هذه المهنة العظيمة ، و من أهم من جسدوا تأثير هذه المهنة على الحراك الفكري والعلمي . ذلك أن الفهرست حفظ التراث الإسلامي من خسارة عظيمة كان من الممكن أن تلحق به لو فقد هذا الكتاب أو لم يُكتب ، ذلك أنه حوى معلومات طيبة عن الكتب و المؤلفين و النقل و التعريب و نقل عنه كل من أتى بعده ، فأي أثر تعليمي أقوى من ذلك وأي تأثير فكري أوفى من أن يصير كتابك مرجعاً لألوف مؤلفة من الباحثين و المتعلمين منذ ذلك العصر إلى يومنا هذا.

كما أن من الأمثلة البارزة للتأثير الفكري والتعليمي للوراقة، أثرها على الفيلسوف والطبيب ابن سينا، الذي استفاد استفادة عظيمة من محتويات مكتبة السلطان نوح بن منصور الساماني، وهي المكتبة التي اطلع عليها في سنوات نضجه و تفتح ذهنه ، ووصفها بأنها تحوي من الكتب ما لم يصل اسمه إلى كثير من الناس ، و يمكن القول أن ابن سينا

كما أفاد و شكل نموذجاً للحراك الفكري الناتج عن الوراقة والكتب، فهو كذلك أنتج و أبدع و أثر في الحراك الفكري، فكان بذلك متأثراً في أولى سنين عمره وشبابه، ثم تحول مؤثراً ومحركاً للفكر والتعليم والتأليف.

وابن مسكويه وهو من هو في المنطق والفلسفة و علوم الكيمياء والتاريخ والأدب، وله ما له من دور كبير في الفكر والتعليم، استفاد من كونه خازناً لمكتبتين من أشهر مكتبات عصره و هما مكتبة عضد الدولة البويهي و مكتبة ابن العميد ، فأخذ ينهل من علوم الكتب فيهما وقرأ وتعلم وتهيّأ له بذلك النبوغ الفكري والتعليمي .

ويرى الباحث أن هذه الآثار الفكرية والتعليمية كانت ملازمة لكل من عمل في مكتبة أو حانوت للوراقة إذ لن يعدم أي عامل في هذا المجال نفحة من العلم أو جزءاً من المعرفة أو قبساً من فكر نيّر ، فهو جليسٌ للكتب ورفيق للكتّاب و زميل مهنة للوراقين، ويمكن أن يقاسوا بالجليس الصالح الذي شبهه الرسول عليه الصلاة والسلام بحامل المسك .

وفي استكمال النخبة التي وازنت أو مزجت بين الوراقة ودورها الفكري والتعليمي، وأخذت من نتاج الوراقة و أعطت و أنتجت للفكر و التعليم آنذاك نجد حمادة ذكر كذلك عَلماً لا يمكن تجاوزه ورمزاً لايمكن إغفاله، وهو ياقوت الحموي صاحب معجمي البلدان والأدباء، إذ إنه استفاد استفادة عظيمة من مكتبات مرو، إذ يقول الحموي عن نفسه: " كنت أرتع فيها و أقتبس من فوائدها ، وأنساني حبها كل بلد و ألهاني عن الأهل والولد وأكثر فوائد هذا الكتاب (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن " (حمادة، ١٩٧٨، ص٢٥٥-٢٥٦).

أما المؤرخ والفيلسوف ابن الفوطي صاحب مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب فقد تسنى له العمل خازناً في مكتبتين من أعظم المكتبات العلمية ، وهما مكتبة الرصد في مراغة والمدرسة المستنصرية في بغداد، وكانتا تحويان نفائس الكتب النادرة في جميع الأصناف والمواضيع من تاريخ وسير، وألقاب، وأنساب، وفقه، وحديث ، وأخبار ، وأدب، وشعر، ولغة، وتصوف، وحكمة، وطب، وما وراء الطبيعة أكتسب الذكاء الحاد واستطاع مع هذه المصادر وهذا الجو العلمي أن يبرع في التأليف و يقدم للمكتبة العربية الإسلامية العديد من المؤلفات القيّمة .

وشمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان صاحب وفيات الأعيان وأبرز من كتب في السير و التراجم، فيذكر أنه ما تأتّى له تأليف كتابه إلا بعد أن وصل القاهرة راغباً في التمكن من الاطلاع على كتب معينة كان يبحث عنها ، فلما اطلع عليها و استفاد منها شرع في إكمال وفيات الأعيان وقدمه هدية قيّمة ودرة ثمينة للمكتبة العربية الإسلامية .

ويرى الباحث أن كلاً من هذه النماذج التي ذكرناها من مؤلفين وكتّاب ومؤرخين وفلاسفة وقضاة كان لكل منهم من الوراقة نصيب ، قلّ أم كثر ، ومارسوا بعض مهامها وعملوا ببعض أعمالها ، وهو ربط واضح و تأثير جلي لدور الوراقة كمهنة و تأثيرها على الحراك الفكري والتعليمي ، لما قدموه و أثروا به الحضارة والفكر العربي الإسلامي آنذاك ، بل إن أكثر هؤلاء ما تزال مؤلفاتهم إلى يومنا هذا تعد مصادر ذات قيمة عالية و فخراً من مفاخر التراث الإسلامي و التاريخ العربي ، و يمكن القول إنه لولاها لفقدت الأمة كثيراً من العلوم المهمة ومصادر المعلومات الثمينة .

المطلب الثالث: دور الترجمة ودعم بيت الحكمة لمكانة الوراقة والوراقين:

الخليفة هو رأس الهرم و عمود الدولة والمسيّر لها على ما يريد و يبغي ، وبنو العباس –خصوصا في العهد الذهبي– هم الداعمون الأوائل لكل حراك ثقافي ونشاط علمي مؤثر على الوراقة والتأليف ، ومن أبرز النصوص التي وقعت عليها لوصف دعم الدولة العباسية لتلك الحركة العلمية الفكرية هو ما ذكره محمد ماهر حمادة أيضاً .

يقول حمادة: " و إذا تحدثنا عن العهد الذهبي للنقل والترجمة من سائر اللغات إلى اللغة العربية فهو عصر الرشيد وابنه المأمون؛ وذلك لأن النقل أصبح في زمانهما عملا رسميا تتولاه الدولة وتنفق عليه من موازنتها وتحشد له أعظم النقلة والعلماء والمفكرين وتؤسس له المؤسسات العلمية ويرتحل في طلب الكتب العلمية والفلسفية والطبية ويراسل الملوك والحكام من أجلها وقد أسس الخليفة هارون الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بهذا العمل الجليل وهي مؤسسة كان عملها أول الأمر مركزاً للنقل والملازمة كما يقول صاحب الفهرست ، ثم تطورت في زمن المأمون وأصبحت مؤسسة علمية من الطراز الممتاز ، همها ترقية البحث والتجرد للدراسات العليا، ويمكننا أن نقول إن هذه المؤسسة المسماة باسم بيت الحكمة قد أصبحت في زمن المأمون أكاديمية بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة، تضم أماكن للدرس وأماكن لخزن الكتب، وأماكن للنقل ، وأماكن للتأليف إلى جانب المرصد الفلكي، والنشاط الفلكي الذي مارسته " (حمادة، ١٩٧٨، ص٥٣).

ويرى الباحث أن بيت الحكمة وما مثّله من مركز علمي معرفي فكري ثقافي ، هو أساس من أهم الأسس التي نشأت عليها النهضة العلمية للحضارة الإسلامية ، ولا يمكن لباحث في الوراقة والوراقين أو المكتبات، أو الترجمة، أو التأليف والتدوين بشكل عام ألا يذكر بيت الحكمة كمثال على تلك النهضة، وفي بحثنا هذا فلبيت الحكمة بالتأكيد أثر على النشاط الفكري للوراقة والحراك العلمي الذي حققه الوراقون موازنين بينها كمهنة و بين نتاجها العلمي الفكري الذي كان متاحاً ومتوفراً في بيت الحكمة من نسخ و نقل و ترجمة بجهود الوراقين العاملين فيه .

وعلى الرغم من الاختلاف بين آراء المؤرخين التي وقعت عليها في عملي هذا ، بين نسبة بيت الحكمة للرشيد أو المأمون ، فإن المأمون على كل حال هو من طور بيت الحكمة ودعمه بماله و فكره وهو من أوصله إلى ما وصل إليه من مكانة علمية فكرية . يذكر صاعد الأندلسي صاحب طبقات الأمم الدور الكبير الذي أسهم به المأمون وهو من يُعزى إليه تطوير بيت الحكمة ورفع شأنه وجلب المترجمين وذوي الخبرة للعمل فيه والقيام عليه وعلى دوره الفكري والعلمي .

وفي تتبعه لاهتمام العرب بالعلوم وبحثهم عنها وتشجيعهم لها يرى الأندلسي أن أول من اهتم بهذا المجال في بني العباس هو أبو جعفر المنصور إذ وصفه بأنه برع في الفقه وتقدم في علم الفلسفة وغيرها، ثم ينتقل للحديث عن المأمون ذاكراً أنه أقبل على العلم واهتم به وخاطب ملوك الروم واستمالهم بالهدايا راغباً في ما لديهم من كتب الفلاسفة اليونانيين الكبار كأفلاطون وأرسطو طاليس ، وأبقراط وجالينوس ، واوقليدس ، وبطلميوس وغيرهم حتى نال مراده ، ثم بعد ذلك أخذ يستقطب المترجمين والمؤلفين ، والوراقين للعمل على مشروعه العلمي الفكري الكبير .

يقول الأندلسي: " فاستجاد لها مهرة التراجمة ، و كلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حض الناس على قراءتها و رغّبهم في تعليمها فنفقت سوق العلم في زمانه و قامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحصائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها، فكان يخلو بهم و يأنس بمناظرتهم و يلتذّ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء و الفقهاء والمتحدثين و المتكلمين و أهل اللغة و الأخبار والمعرفة بالشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوي الفنون و التعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة و سنّوا لمن بعدهم منهاج الطب ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها و زمان اجتماع شملها " (الأندلسي، ١٩١٢، ص٤٨و٤٩).

ومن هذا النص يمكن أن نستشف ما بلغه العلم و الفكر آنذاك من مكانة عظيمة و منزلة رفيعة، اكتسبتها من قمة هرم الدولة الإسلامية وهو خليفة المسلمين ، فالاهتمام بالعلم والفكر انسحب على كل من له علاقة به واهتمام بأي شكل من أشكاله ، ويرى الباحث أن تلك سمة عامة في كل العصور و كل الدولة و كل جانب من جوانب الشؤون العامة ، سواء الفكر أو العلم أو حتى الرياضة أو العمران أو المهن وغيرها ، حيث نجد أي موضوع أو جانب معين يهتم به رأس الدولة وقائدها يلقى قبولاً عاماً و اهتماماً شعبياً وميلاً نحوه من خاصّة الشعب و عامّتهم ، و هذا برأيي لا يزال منذ القدم سائراً و ماضياً في الشعوب حتى

يومنا هذا فالناس بين خائف و طامع، ولعل القائل ((الناس على دين ملوكهم)) لم يجانب الصواب، وذلك ما أكدته الأحداث وتعاقبها.

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير في البداية و النهاية ، و هو ما نصّه : " كانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك يلقى الرجل الرجل فيقول: ماذا بنيت ؟ ماذا عمرت ؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم تزوجت ؟ ماذا عندك من السراري ؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم وردك ؟ كم تقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة" (ابن كثير، ١٩٨٦، ص١٦٥).

فلا غرابة إذن من تفاعل الناس مع تلك النهضة العلمية الفكرية المدعومة من قبل الخليفة بالمال و الجاه و الاهتمام الشخصي، الذي أعطى للكتاب تلك المكانة كانت سبباً لتغني أهل البلاغة بالكتاب و مكانته و فوائده ، فنظم في وصفه الشعراء و نثر في مدحه الأدباء ، و ارتفع سعره و غلا ثمنه و عرف قدره و افتخر به مؤلفوه و اعتزّ به مقتنوه ، و بلغ شأناً عظيماً و مكانة رفيعة. وعلى الرغم من ذلك أن أول ما يتبادر لذهن القاريء في ذلك هو قول شاعر العرب الأول أبي الطيب المتنبي :

أعز مكان في الدنيا سرج سابح، وخير جليسٍ في الزمان كتاب (الصاحب، ١٩٦٥، ص٦٧). إلا أن الباحث لم يجد أجمل قولاً ولا أكثر بلاغة ولا أحسن وصفاً من الجاحظ الذي أعطى الكتاب حقه وافياً بقوله الذي نقله الثعالبي وانتقاه في باب مدح الكتب والدفاتر .

يقول الجاحظ : " الكتاب وعاء مليء علما، وظرف حشي ظرفا، وإناء شحن مزاحا وجدّا؛ وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائبه، وإن شئت ألهتك مضاحكه، وإن شئت أشجتك مواعظه. فالكتاب نعم الظهر والعمدة، ونعم الكنز والعدة، ونعم الذخر والعقدة ونعم النزهة والعشرة، ونعم الشغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير النزيل. وهو الجليس الذي لايطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والمستبيح الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يستطيلك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك. وهو الذي يعطيك بالليل طاعته بالنهار، ويفيدك في السفر إفادته في الحضر، لا يعتل بنوم ولا ضجر، ولا يعتريه كلال سهر، وهو المعلم الذي افتقرت إليه لم يحتقرك، وإذا قطعت عنه المادة والمائدة لم يقطع عنك العادة والعائدة، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك وإن قلّ مالك لم يترك زيارتك (الثعالبي، ٢٠٠٩، ص١٢١و١٢٢).

ونختم بهذا القول البارع واللفظ البديع والعبارات العميقة للجاحظ بحثنا هذا الذي رصدنا من خلاله دور ظهور الوراقة وتطورها وأثرها الفكري و تنوعه بين الدور المهني و الدور العلمي ، راجين أن نكون وفقنا في ذلك .

الخاتمة

بعد هذا البحث المستفيض و الغوص العميق في بحر الوراقة والوراقين خرج الباحث بعدة نقاط كانت نتاجاً لرحلة قضاها بين صفحات الكتب وجدران المكتبات ودكاكين الوراقة، فالوراقة عامل بالغ الأهمية في اكتساب العلم و حفظه و من ثم إنتاج علم جديد و كتابته ونشره، و قد خلص الباحث بعد دراسة بدايات تطوره الوراقة وازدهارها إلى علوّ مكانتها وتأثيرها في كل المجالات العلمية والفكرية وغيرها إلى عدة نقاط أضعها بين يدي القارئ في السطور الآتية:

النتائج:

١- إنشاء مدينة بغداد شكل فجراً مشرقاً للوراقة و حاضناً لتطورها وداعماً لازدهارها؛ وكانت بغداد عاصمة الوراقة دون منازع.

٢- يُعد بيت الحكمة أبرز مؤسسة دعمت الوراقة والوراقين في التاريخ العربي الإسلامي، كونها مركز الفكر والعلم والمعرفة والنسخ والتدوين والترجمة والتأليف .

٣- ظهور التأليف بعد تلك العوامل السابقة جاء كسبب ونتيجة في ذات الوقت لازدهار الوراقة وعظم شأن الوراقين،وذلك مع طفرة حركة التأليف وظهور المؤرخين والفلاسفة كالنديم والمسعودي والأصفهاني ، والطبري ، والبلاذري ، والمعري وابن قدامة وابن المعتز ، والعسكري ، والتوحيدي والجاحظ والكندي والفارابي والرازي ، وابن سينا وغيرهم.

٤- قرار الرشيد في فرض استخدام ورق الكاغد كان له عظيم الأثر في تطور الوراقة وتنظيم عمل الوراقين؛ لأن الكاغد والورق أصلح للكتابة واللف ، والطيّ ولصعوبة الكشط و المسح و التعديل فيه، حفظاً للمصداقية و مكافحةً للتزوير الذي كان رائجاً مع استخدام الجلود للكتابة.

٥- دعم الخلفاء العباسيين للوراقة ونشاط الوراقين أسهم كثيراً في تطوير هذه المهنة والصناعة ، وأبرزهم الرشيد و المأمون.

٦- نتيجة للتطور الكبير في الوراقة والعلم والفكر في تلك العصور ، ظهرت المكتبات – العامة والخاصة– كرمز للثقافة و المعرفة و تنافس المهتمون في تطوير المكتبات ورفدها بشتى المؤلفات.

٧- بعض حواضر العالم الإسلامي الأخرى كانت على خط التطور الفكري والمعرفي – وبالتالي التطور في مهنة الوراقة- ومنها مصر والأندلس والشام وغيرها وظهر بين حكامها تنافس في استقطاب العلماء والشعراء ودعم المؤلفين و استجلاب أمهات الكتب.

٨- تطور الوراقة و الدعم الذي حصلت عليه من الخلفاء و الوجهاء عاد بالفائدة الكبيرة على المهرة من الورّاقين ؛ إذ عظم الطلب عليهم و ازدادت أهميتهم وارتفعت أجورهم وعلا شأنهم ، وذاع صيتهم ومنهم من نال الثراء من هذه المهنة .

٩- تطور الوراقة أنتج ظهور أسواق الوراقين وحوانيت الكتابة والمكتبات التجارية و أصبحت عنصراً مهما في المدينة الإسلامية ومظهراً لما بلغته من شأن في العلم و المعرفة و الفكر ؛ وتلك الأسواق بالتالي شكلت أندية لتبادل العلم ومنابر للتنافس في المعرفة والمناظرات والجدل وتلاقح الأفكار.

١٠- ليس كلّ ورّاق عالماً ولا مفكراً ولا مؤلفاً ؛ فهناك وراقون بسطاء غير أولي علم لكنهم يكتبون ويعملون في الوراقة وقد يكون فيهم حسن الخط سريع الكتابة لكنه مجرد كاتب وناسخ ليس له إنتاج علمي أو أدبي أو معرفي .

١١- أغلب العظماء من الخلفاء والمؤلفين والمفكرين –إن لم يكن جميعهم- كان أساس علمهم من نتاج ما ساهمت به الوراقة وفكرهم اكتسب مما أفرزته الوراقة والوراقون من إنتاج مكتوب .

١٢- الكتاب بلغ أوج عزّه في الفترة التي تناولتها هذه الدراسة ، وصار كنزاً ثميناً و مادة ذات قيمة عالية و ثمن باهظ ، ورمزاً للعلوّ والرفعة .

كما خلص الباحث إلى بعض التوصيات و المقترحات التي قد تكون استكمالاً لهذا الموضوع و ذات أثر في استيفاء البحث عنه و سبر أغواره.

التوصيات و المقترحات :

١- دراسة حال الوراقة الراهن ، وتأثير دخول التكنولوجيا في الوراقة .

٢- عمل دراسة مقارنة بين دور الوراقة عبر العصور ، وأي العصور كانت ذات أثر أكبر في تطوير وازدهار الوراقة .

٣- البحث عن آثار نقص الاعتماد على الورق في العلم و المعرفة والتحديات التي تواجهها صناعة الورق.

٤- استشراف مستقبل الوراقة وهل هي إلى زوال مع تطور التكنولوجيا و اقتصار استخدام الأجهزة الذكية و البريد الإلكتروني في جلّ الدوائر الحكومية و المؤسسات والجامعات وغيرها .

٥- العمل على دراسة تختص بتطبيقات قراءة الكتب مثل أمازون كيندل amazon kindle و آبل بووكس apple books وسكريبد scribd و جوجل بلاي بووكس google play books و جوود ريدز good reads و غيرها من التطبيقات ؛ وهل هي بديل يمكن أن يكون دائماً للكتب و المكتبات .

٦- البحث في تأثير نقص استخدام القلم والورقة في وقتنا الحالي على مهارة الكتابة والإملاء والإنشاء وغيرها.

وبهذا فقد تم هذا العمل البحثي المتواضع ، وذلك بتوفيق من الله سبحانه و دعم من أستاذي الفاضل و معلمي والمشرف على رسالتي الدكتور صالح اللهيبي ، راجياً أن أكون قد وفقت في هذا الجهد ، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان ، و الله المستعان على كل حال وله الحمد والشكر وله المنة وعليه الثناء الحسن ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد بن عبدالله.

قائمة المراجع و المصادر :

١. سعيد، خيرالله، (٢٠١١)، موسوعة الوراقة و الو راقين في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
٢. النديم، محمد بن اسحق، (١٩٢٩)، الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر.
٣. سعيد، خيرالله، (٢٠٠٠)، وراقو بغداد في العصر العباسي، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، الرياض.
٤. النملة، علي بن إبراهيم، (٢٠١٨)، الوراقة والوراقون في الحضارة الإسلامية دراسة ورصد لناشري تراث الإنسانية، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
٥. القرآن الكريم، سورة الحجر، آية٩.
٦. الحموي، ياقوت بن عبدالله، (١٩٩٥)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
٧. القلقشندي، أحمد بن علي الفزاري، (٢٠١٢)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨. هونكه، زيجرد، (١٤٣٢ه)، شمس الله تشرق على الغرب، دار العالم العربي، القاهرة.
٩. المقدسي، أبوعبدالله محمد بن أحمد، (١٩٩١)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة.
١٠. الحموي، ياقوت بن عبدالله، (١٩٩٣)، معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١١. البغدادي، أحمد بن علي، (٢٠٠٢)، تاريخ بغداد، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١٢. الذهبي، محمد بن أحمد، (١٩٨٥)، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٣. الجوزي، عبدالرحمن بن علي، (١٩٩٢)، المنتظم في تاريخ الأمم، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٤. حمادة، محمد ماهر، (١٩٧٨)، المكتبات في الإسلام نشأتها و تطورها و مصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٥. البخاري، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل، (١٣١١ه)، صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق – مصر.
١٦. الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد، (١٩١٢)، طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت.
١٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر،(١٩٨٦)، البداية و النهاية، دار الفكر، دمشق.
١٨. الصاحب، اسماعيل بن عباد، (١٩٦٥)، الأمثال السائرة من شعر المتنبي، مكتبة النهضة، بغداد.
١٩. الثعالبي، عبدالملك بن محمد، (٢٠٠٩)، الظرائف واللطائف، دار الكتب و الوثائق القومية، القاهرة.